الجزء الخامس عشر — المجلد الرابع

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

المنار

١٣١٥

يبين الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً ١٨ ربيع الثاني سنة ١٣١٩ هـ

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاثنين غرة رجب الحرام سنة ١٣١٩ — ١٤ أكتوبر (ت ١) سنة ١٩٠١)

كم حكمة لله في حب المحمدة الحقة [1]

العالم الانسانيُّ كتاب المعتبر ، وسفر المستبصر ، وكل قرن من قرونه صفحة ، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ، ولنا في كل ما خطَّهُ القلم الالهيُّ عبرة ،

اول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على احوال الشعوب في اطوارها المختلفة وأدوارها المتبدلة فنرى امماً عَلَتْ وسمت وحلّقت في جوّ المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وَعفَتْ رسومها ولم يبق لها أثر الا في الروايات والاحاديث . ومنها أجيال كانت في ثَنيْ المدم ثم اكتست حلية الوجود واخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأُخنت عليها امهات قشم . ومنها ما نراه الى اليوم يسحب مطارف العزّة ، ويشرف على العالم بالامر والنهي من

(١) من مقالات العروة الوثقى الحكيمة

شواهق القوّة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشؤن وتلك الاطوار كما تعرض عليه الصور والتماثيل ينبسط لبعضها اذا اعجبه وينقبض للآخر اذا انكره وهو فى غفلة عن منشأ ظهورها وعلل انقلابها . فان سئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون وما هو الا بخت يسعد فيسعد به السعداء ونحس فيتعس به الاشقياء

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التى تتبعها احوال الامم فى صعودها وهبوطها ويعلم ان ما سيق من الخير لأمة انما كان بايدي آحاد من امائلها جدوا وجاهدوا وبما بذلوا من نفائسهم وانفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبني جنسهم ويرى لاولئك الاعلام ذكرا يرفع ومكانة من القلوب تحمد وتميزاً عند الخلف بالكرامة وهم لم يخالفوا الناس فى جسومهم ودمائهم وانما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة فى اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر فاذا اخذ مأخذهم واستقام على طريقتهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره حتى تعثر اقدامه فى أياد مقطّعة ورؤس مجذوذة واشلاء مبدّدة وشعور منثورة وصدور مدقوقة ويشهد الطريق مضرّسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين فى منهاجه ولا محيص له عن سلوكها وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير الاساد وزمجرة الضراغم ولا بد له من اختراقها

هكذا تتكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة المخاطر اداناها ، والموت الشريف اقصاها واعلاها ، فتارة يخور عزمه ، ويضعف

همه ، فينكص على عقبيه ، ويرتد الى اسوإ حاليه ، ويرتع في مراتع امثاله حتى يروح الى عطنه الاول به وهو العدم ، وتارة يوحي اليه الالهام الالهي ان الشخص في خاصته والامم في هيئاتها ونوع الانسان في مجموعه تطالبها صورة الإبداع باعمال شريفة دونها اجهاد الانفس في السعي وحملها على مالا تهوى ومغالبة الاهوال والغوائل . وفيما اودع الله الانسانَ من القوى العالية والخواص السامية اكبر مساعد على ما تندفع اليه الهمة وتنبعث له العزيمة .

ان من أحياه الله بالحياة الانسانية كلما هاجمته المصاعب لا يزداد الا حرصاً على قهرها كما ان صاحب الشهم لا يزيده الخصام الا حدة في الجدال واصراراً على اقناع المخاصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيي حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء اشد مما يعانيه الانسان في ابراز مزايا الانسان . ان صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويخشى مفترسة الكواسر ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة ويعتصم بمكانة من الرفعة وتقصر عنه يد المتناول . أما من اخلد الى السفل فحظه من الحياة خوف لا ينقطع واشفاق لا يزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد والوقوع بين أنياب الغوائل . مات من الناس كثير في طلب العلا ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا ، ولكن هلك بالفتك اضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رضوا الخمول ورضوا بالحياة الحيوانية — هذه احاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين الى أشرف المقاصد فاما وصل ولما مات كما يموت الكرام

لم تنل امة من الامم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر سواء في العلوم والمعارف او الآداب والفضائل أو القوانين والنواميس العادلة أو العسكرية وقوة الحماية حتى خرج آحاد منها الى ماتخشاه النفوس وتهابه القلوب وسلكوا تلك المسالك الوعرة فبلغوا بأممهم ، اقصى مابلغت بهم هممهم ، مع الاعتماد على العناية الالهية في جميع سيرهم

ماذا يريد المأثرون فى خدمة الأمم أو النوع الانساني والمنفقون لحياتهم فى أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة او يشاركهم فى النوع ؟ أليس قد جعل الله لكل شيء سببا ؟ اليس من سنة الله فى عباده ان لا تتجه الارادة البشرية الى حركة تصدر عن المريد الا بعد تصوّر غاية تعود الى ذاته وبعد اليقين او راجح الظن بانه يستفيد الغاية من العمل ؟ فان كان الاجل يذهب فى مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينفد فى مناهدة الاوصاب البدنية ، فلماذا يقصدون من اعمالهم ؟ ان كان يوجد فى ابناء جلدتهم ، وذوي ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على إيلامهم ، ومما نتهم فى مقاصدهم ، وصدهم عن السعي فيما يرجع خيره الى انفس المعارضين ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع ، والشماتة والتشنيع ، او يدافعهم بالمكافحة والمنازلة فما الذى يبتغون من من جدهم وكدهم ؟ لا لذة تجتنى ، ولا الم يتقى ، فما هذا الباعث القوي الذي غلب الاهواء ، ولم يضعفه جهد البلاء ؟

نعم اودع الله فى الانسان ميلا اقوى من كل ميل وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الانواع وهو حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق — أقول هذا تفادياً من حب المحمدة من اي وجه

حقاً كان او باطلا وطلب الثناء بالزور والغش والرياء والظهور بمظاهر الاخيار ، مع تبطن سرائر الاشرار ، فان هذا من اسوإ الخلال وانما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة

المحمدةُ هي الغذاء الروحاني ، والمقوّم النفساني ، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات وازدرى اللذائذ الحسية وقوى فيه الميل الى المحمدة الباقية وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الاعمال * تأمل * إن الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين اقصاها الأجل المحدود من يوم ولادته الى نهاية العمر المقدر والآخر أبعد من هذا نهاية وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل امته او تعمّ النوع الانساني وغاية هذا الاجل عند ما يمحى أثره من الواح النفوس وصفحات التاريخ . فللروح الفاضلة وجودان وجود في بدنها الخاص ووجود في جميع الابدان وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل . ولا ريب ان هذا الاجل الطويل وهذا الوجود العريض خير من ذلك الأجل القصير والوجود الكز[1] وحقيق بالانسان ان يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير .

يطول بي الكلام فاقصر : ان الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في جبلة البشر ميلاً الى الحمد والهمهم تأدية حقه لمستحقه . الم تر انطلاق الالسن في كل امة بالثناء على من كان سبباً لها في مجد ورفعة او نهوض من سقطة أو توحيد كلمة أو تجديد قوة او كمال في فضيلة أو تقدم في علم أو صنعة ويرسمونه في الالواح ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ويرفعون له الهياكل والتماثيل ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الابناء عن

(١) الكزّ اليابس والمنقبض . وكزّ اليدين بخيل والمراد هنا ما لا خير فيه

الآباء حتى ينقرضوا او ينقرض العالم . اذا جحدت الأمة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ضعفت الهمم وقل السعي في المصالح العامة وانقبضت الأيدي عن تعاطيها فهبطت شؤن الامة فافترقت وماتت

ان الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب فاذا استوى لدى الامة الحسن والقبيح والطيب والخبيث والفضيلة والرذيلة والمصلحة والمفسدة وفقد منها التمييز ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ولم تعرف معروفاً ولم تنكر منكراً سلبت آحادها الميل الى المعالي والكمالات وكان هذا أشد نكاية بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم وسطوة الغالب لا تثبت اذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف والفضل بالحمد فانه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وانقاذها . اما فقد هذا الاحساس الشريف فهو أشبه علة بالهرم لا عقبى له الا الموت والهلاك .

كيف لا تكون المحمدة الحقة نعمة على النفوس الانسانية يسعى لها الأعلون من بني الانسان وقد امتنّ الله بها على نبيه فيما يقول له « ورفعنا لك ذكرك » وكيف لا تكون حقاً تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الاعمال الصالحات كما سوغ ذلك لنبيه في قوله « وأما بنعمة ربك فحدث »

قلّب طرفك في تواريخ الامم أقصاها وأدناها تجد برهاناً قاطعاً على ان الامة متى بخست قيم الاعمال العالية وازدريَ فيها بشأن الفضيلة فقدت مابه قوامها وانهدم بناؤها وذهبت كما ذهب أمس ولا جرم ان الكفران مقرون بزوال النعم

يمكنني ان اختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة التي اقدمت في هذه الاوقات النحسة ووقفت على شفير الخطر وكتبت على نفسها السعي في توحيد المسلمين ويسرنا ان نرى عددها كل يوم في ازدياد نسأل الله نجاح اعمالها وتأييد مقاصدها انه نعم المولى نعم النصير

المحاورة الحادية عشرة بين المصلح والمقلد

(الاخذ بالدليل ونهي الائمة عن التقليد)

لما ضم الشاب المصلح والشيخ المقلد المجلس الحادي عشر قال الشيخ (المقلد) : ان صديقي قد سافر وهو في حيرة لا يدري كيف يجمع بين ما اوردته من نصوص ائمة الحنفية الصريحة في وجوب اتباع الدليل وعدم الاخذ بكلامهم الا بعد معرفة مأخذه من الكتاب والسنة والقياس الجلي وبين ماذكره ابن عابدين في رسم المفتي وفي حاشيته على الدُّر المختار من تقسيم العلماء الى ست طبقات كل طبقة تقلد مافوقها الى المجتهد المطلق الذي له الحق وحده بأخذ الحكم من الدليل . وقال : اننا نرى في الكتب أقوالاً مثل هذه الاقوال الدالة على وجوب اتباع الدليل فنحسبها متروكة لأننا مقيدون بكتب مخصوصة واقوال علماء مخصوصين وحجر علينا الاخذ بقول غيرهم فضلاً عن اتباع الدليل استقلالا حتى قالوا ان ابحاث الكمال ابن الهمام الذي شهد له كثيرون ببلوغ مرتبة الاجتهاد المطلق لا يجوز العمل بها اذا صادمت المنقول من نصوص المذهب وان كانت أبحاثه مدلّلة وتلك النصوص لا دليل عليها بل هي مصادمة للدليل